في جنائن الغرب

﴿ الحرب ﴾

« عن الفيلسوف جوزيف دي مستر[1] »

نرى في ميدان الطبيعة الحية قوةً غريبة كأنها غضبٌ محتوم يُسلط جميع المخلوقات على بعضها بعض، حتى يظهر حكم الموت مكتوباً على حدود الحياة كلها . فاذا أغفلنا الجماد رأيناه يبتدي، بالنبات ، ويتناول أصغر عشبة تنبت الى اكبر شجرة تنمو . كم غصن ذوى وكم زهرة ذبلت . . . غير انه يتجلى هذا الحكم في الحيوان في أفظع حقائقه كأنّ هناك دافعاً خفياً ظهرت نتيجته مشيرة الى اصل الحياة بوسائط قاسية . ففي كل طائفة من طوائف الحيوان عددٌ يفترس قويّها ضعيفها . فهي بين حشرات تقتنص ، وزحّافات تبتلع ، وطيور جارحة ، وذوات أربع كاسرة ، بحيث لا تمرّ برهةٌ الاّ قتَل حيوانٌ حيواناً

---

(١) هو الكونت جوزيف دي مستر (١٧٥٤ – ١٨٢١) ولد في شانبيري من أعمال فرنسا ، وأرسله ملك سردينيه الى بطرسبرج سفيراً مفوّضاً ، فأقام في عاصمة روسيا سنين عديدة ورجع الى بلاده سنة ١٨١٧ . وهو فيلسوف عميق الفكر غريب الابحاث، صنف مؤلفات كثيرة منها كتاب «البابا» و«نظرات في فرنسا» . ولكن أهم مؤلفاته كتاب «ليالي بطرسبرج» الذي ترجمنا عنه هذه المقالة . وقد تناول فيه البحث عن تصرّف العناية الالهية وملكها الزمني في هذا الكون . وفي سائر مصنفاته ترى الفيلسوف متحزباً لحكومة الفرد ، مدافعاً عن الدين المسيحي اشد دفاع، قاذفاً ومشهراً بكتاب القرن الثامن عشر كفولتير وروسو وسواهم. وهو جزل الكلام فصيح العبارة ، صارم الحكم والانتقاد ، لم تدخل مؤلفاته فرنسا الا بعد وفاته. وقد ظنه القراء رجلا جباراً صلد القلب والعواطف ، حتى اذا نشرت رسائله العائلية والسياسية سنة ١٨٥١ وسنة ١٨٥٨ ، رأى الناس فيه سياسياً محنكاً وأباً حازماً رقيق العواطف سهل الخلق لين الجانب . غير ان تحزبه الى حكومة الفرد المطلق بغضه الى الشعب وأصحاب المبادئ الديموقراطية لانهم لم يفهموه

فالحيوان أرقى من النبات ، والانسان أرقى الحيوان . وهو لا يغفل واحدة منها . لأنه يقتل ليأكل ، ويقتل ليلبس ، ويقتل ليتزيّن ، ويقتل مهاجماً ، ويقتل مدافعاً ، ويقتل متعلماً ، ويقتل لاعباً ، ويقتل قاتلاً . . . ملكٌ عظيم غاشم لا شيء يسدّ عوزه ، ولا شيء يقف امامه . تراه قد أحصى مقدار الزيت الذي يستخرج من رأس الحوت ، ثم تراه قد شكّ بابرته هذه الفراشة الجميلة الذي اقتنصها باصبعه وهي طائرة ، يحنّط التمساح ويسجن الطير ، ويخزن الحية ذات الاجراس في ماءٍ يحفظها لأعين المتفرّجين ، واذا ركب جواده ليصيد النمر كان سرج جواده من جلد ذلك النمر ؛ يأخذ امعاء الخرفان ليشدّها أوتاراً على قيثارة طربه ؛ وينتزع أضالع الحوت فيصنع منها مشداً لحصر الفتاة العذراء . ويستعمل عظام الذئب آلاتٍ تتقاضاها صناعاته ، ويجعل نيوب الفيل أعوبةً لولده الصغير . ان مكاتبه لحافلة باشلاء قتلاه . غير ان الفيلسوف الذي يتتبع هذه الحوادث لا بد له من التطلع الى حيث تنتهي في هذا الكون العظيم . اذ لم يبقَ فوق الحيوان الاّ الانسان وليس غير الانسان من ينفّذ هذا الناموس عليهِ . نعم ان الانسان موكّل بقتل الانسان ، ولكن كيف يتم ذلك وهو مخلوق ملؤه الحب والشفقة ، يبكي مصائب قريبه كما يبكي مصائبه ، ويخترع خرافاتٍ لنفسهِ لكي يبكي . . . كيف يتم ذلك وقد قيل له « انهُ يُسأل عن آخر قطرة من الدم المهروق ظلماً »

الحرب كافلة تنفيذ هذا الحكم الرهيب . ألا تسمعون الأرض تهدر ظامئةً طالبةً شرب الدماء ؟ . . . لا تشفي أوارها دماء الحيوان ولا دماء

المجرمين الذين ماتوا بسيف الاحكام . ولو ان عدل البشر قضى على الكل لما بقي مجالٌ للحرب ولكنها لا تطول الاَّ عدداً نزراً لـمّا تهمله في اكثر الأحايين وهي لا تدري ان انسانيتها الفظيعة تدعو الى لزومية الحرب . الأرض لا تصرخ عبثاً . هذه الحرب قد اتقدت نارها وتطاير شرارها فاذا بالانسان قد تناوله غضبٌ الهي بعيدٌ عن الحقد والغضب البشري فمشى الى ساحة القتال لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يريد . وهنا اللغزُ المعقَّد . اذ ان الذي يفعله الآن مباين لطبيعته ولكنهُ يفعله مستلذاً مطيعاً . ألا ترون ان الانسان في ساحة الوغى لا يعصى لكبيره أمراً . هل حدَّثنا التاريخ ان جنوداً شقوا على قائدهم عصا الطاعة ولو كان ذلك القائد من اكبر شرَّاب الدماء والقوم الظالمين

لا شيء يقف في سبيل تلك القوة التي تدفع الانسان الى الحرب فيصبح قاتلاً وهو بريء لأنهُ آلة تسيّرُها يدٌ رهيبة فيقع في المهواة التي احتفرها لنفسه قاتلاً مقتولاً وهو لا يشكّ انه هو الذي صنع الموت . .

وهكذا تنفذ تلك الشريعة الهائلة في الحشرات وفي الانسان وتبقى الأرض هيكلاً عظيماً لا تفتر اراقة الدماء على مذبحهِ بلا رحمة ولا شفقة منذ البدء الى انقضاء العالم وموت الموت . . .

فليل سيبوب

المغفرة دليلُ عدم الاهتمام والاكتراث . اذا وُجد الحب الحقيقي يجب ان لا توجد المغفرة كارمن سيلفا